جدلية العلاقة بين المثقف والمكان - المقهى

مقهى «زرياب» في رؤية بحث

معن سمارة*

«الأمكنة كالنّاس: تخفي وساوسها ومخاوفها في نفسها، ولها كلام خاص بها، ومنطق خاص بها».

(حسين البرغوثي)

مقدمة

«زرياب» مقهى وجاليري في مدينة رام الله، بطقوس ومعالم خاصّة. له طريقة غريبة في تقديم الطلبات، ومختلفة في تعامل العاملين فيه مع الروّاد، وهو، أيضاً، يحوي على الكثير من الإبداعات الفنيّة والزيتية التشكيلية لفنانين فلسطينيين. ولـ «زرياب» موسيقى وإضاءة مختلفة، كلّ هذا منحه روحانية خاصة جعلته المكان الذي يأوي إليه المثقفون ليمارسوا فيه إيقاعاتهم الخاصّة مع الكتاب والقلم والدفتر، وليتحاوروا فيه عن جنونهم.

هذه العناصر جعلتني أبحث في محتوى العلاقة التي ينسجها هذا المكان مع الأشخاص الذين يتعاملون معه من روّاد وإدارة، وعن مدى تأثير هذه الأشياء على ثقافة كلّ شخص فيهم، ومساهمة المكان في بناء مخزون ثقافي وفكري لديهم.

إن وجودي شبه الدائم في المقهى، وخصوصاً في فترات المساء والسهرة، جعلني ألاحظ غرابة التفاعل في هذا المكان بين كافة الموجودين فيه، من حيث علاقتهم مع جوّه العام، ومن خلال الحوار الذي يجري بينهم، وطبيعة تعاملهم معه.

وتأتي الدراسة لترصد علاقة الإنسان بالمقهى، وعلاقة المقهى بالإنسان، هذه العلاقة الجدلية التي تحوي بين طيّاتها الكثير من الخبايا والأمور الغريبة والعاديّة، أيضاً، والتي تخصّ العملية التثقيفية في المجتمع ككلّ، حيث إن المقهى، أيضاً، يعتبر أداة تفريغ اجتماعي، تفاعل فكري.

ترتبط التجربة الإنسانية الحياتية بالأمكنة، فالمكان هو الحيّز المتاح الذي تمارس عليه التجربة الإنسانية في الأمور الأخرى. هناك أمكنة تجبرنا على أن نبادلها الحب، وننشئ فيها طقوساً أخرى لنحيا، وهناك أمكنة لا نستطيع فيها

إلاّ أن نلفظ أنفاس حياتنا الأخيرة.

تختلف الأمكنة وتتشكّل في تكوينها ودورها في بناء الفكر الإنساني وتغييره، حيث تبدأ التجربة الإنسانية المكانية بالرحم، رحم المرأة، هذا المكان الأول الذي يعيش فيه الفرد، ثم ينتقل بعدها للبيت وحارة البيت، حيث يجد الأمان والطمأنينة، ويبقى هذا المكان مرتبطاً بالذهن الشخصي للفرد وذاكرته (غاستون باشلر: جماليات المكان 1996)(1)، ثمّ ينتقل لعدها إلى المدرسة، حيث يهتمّ هذا المكان بتدريس الشخص بعض العلوم الحياتية في الأدب واللغة، والعلوم العلمية كالفيزياء والرياضيات، وربما يكون هذا المكان من الأمكنة الأولى التي تهتم في صقل ثقافة الفرد، ثم ينتقل بعدها إلى أمكنة أخرى كالجامعة كي يدرس فيها حقلاً علمياً متخصصاً، أو إلى مكان العمل، ومن الأمكنة الأخرى التي يطؤها الفرد، ويمارس فيها تجربته الإنسانية: المقهى.

ظهر المقهى في العديد من الدول العربية حاجة إجتماعية ملحّة، حيث ازداد عدد سكّان المدن ازدياداً ملحوظاً، وأصبحت البيوت مكتظّة بأهلها وسكانها، فلم يعد هناك متنفس لربّ الأسرة، الرجل، يلتقي فيه مع أصحابه وأصدقائه إلاّ المقهى، ليسمر معهم فيه، ويقضي وقت فراغه، (شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية 1994)(2)، ويحادثهم في أمور الحياة العادية اليومية من مشاكل وأحداث، سوى المقهى.

وكان الإقبال الشديد على المقهى يعود لعدّة أسباب: فالمقاهي موجودة بوفرة في الأحياء الشعبية المكتظّة بالناس، بالإضافة إلى أن المقهى يوفرّ مشروبات ساخنة وباردة ونرجيلة بسعر منخفض إذا ما قورن مع البارات والأندية والمطاعم، «كانت وظيفة المقهى أن يقدّم القهوة والشاي والمرطبات وعروضاً من القصص الشعبية»، (المصدر السابق: 195)، وهذا السعر المنخفض تناسب مع دخل الأسرة ذات الدخل المحدود والمتوسط، غير أن المقهى كان، أيضاً، مكان إقبال طبقات مختلفة من السكّان، ومسرحاً لاهتماماتهم بالقصص الشعبية والحكايا والأغاني التراثية، «إنّه المكان الذي تلتقي فيه مختلف طبقات الشعب، ومختلف الرغبات والأهواء» (المصدر السابق: 195)، حيث استوعب المقهى رجل الشرطة والموظف والعامل والحرامي..

واعتبر المقهى وسيلة للترفيه والترويح عن النفس، ومكاناً يستطيع فيه الفرد أن يلعب مع أصدقائه الورق والشطرنج، و«الشيش بيش»، وأن يتفرّج من خلاله على المحال الأخرى والشوارع والمارّة، وخصوصاً النساء، فقد كانت مراقبة أجساد النساء والتغزّل بهن أحد الملامح المهمة التي أعطت المقاهي أهميتها الأولى، حيث يرتبط ذلك بكونها مكاناً للتنفيس الاجتماعي المكبوت للجنس: «كان المقهى مسرحاً للحياة الشعبية، وهو مكان للعب، لعب الأفكار، ولعب الأصابع والورق والحجارة واللغو والتأمّل، والترويح، والتفريج عن النفس التي ضاقت بالحاضر وهمومه وأغلاله الاجتماعية، السياسية والفكرية..». يقول جمال الغيطاني في تقديمه لكتاب «مقاهي الشرق»: «إن المقهى نموذج مصغّر لعالمنا الذي يضجّ بكلّ ما تحتويه دنيانا» (المصدر السابق: 196).

غير أن المقهى ساهم من خلال احتوائه كافة الطبقات الاجتماعية، واستيعابه كافة شرائح المجتمع من فلاّحين، ولصوص، وموظفين حكوميين، وعمّال،

وكتّاب، وفنّانين، أن يكون مكاناً حوارياً يتحاور فيه كل هؤلاء، ويتجادلون بقصد أو دون قصد في الكثير من القضايا والمعضلات، حيث استطاع المقهى أن يبلور رؤيةً و«حدوداً لثقافة جماعية»، (المصدر السابق: 197)، أكثر من أي شيء آخر، وقد ساهم هذا بشكل أو بآخر في عملية الانفتاح الاجتماعي في الوطن العربي، حيث «المقهى كمكان جماليّ، يعتبر علامة من علامات الانفتاح الاجتماعي والثقافي، فنلاحظ أن المقاهي انتشرت في أماكن مختلفة في العالم العربي، كانت فيه هذه المجتمعات منفتحة انفتاحاً اجتماعياً، وثقافياً، وفنياً ملحوظاً» (المصدر السابق، 195)، ولعلّ هذا الانفتاح الاجتماعي الذي ساعد المقهى على تطوّره، وبنائه في المجتمعات العربية، وهذا الزخم الفكري التعددي الذي استوعبه المقهى، جعل منه على حدّ زعم نجيب محفوظ «رمزاً للحريّة الفكرية، وللحريّة الاجتماعية، حيث تستطيع فيه أن تقول ما تشاء، دون حسيب أو رقيب. . ومن هنا، أيضاً، قال «جيرار ليمبر»: إن مقاهي الشرق مراكز، حريّة التعبير فيها هي القاعدة». (المصدر السابق، 197).

ونظراً لهذا الدور الاجتماعي التقدمي للمقهى، وهذا الجسم الذي عمل على تشكيله، ولهذا الزخم الاجتماعي الذي يحويه المقهى، جاء اهتمام الأدباء والفنّانين والمثقفين بالمقهى، كونه يربطهم، أيضاً، مع باقي فئات الشعب، يشاهدون من خلاله ذلك التفاعل الاجتماعي الكامل، ويمنحهم فرصة كبيرة لتأمله، وبالتالي يكون تعبيرهم الفني الاجتماعي الجمالي مرتبطاً بتأملهم ومشاهدتهم الواقع، ويؤكد «محفوظ» ذلك حيث يقول: «كان جلوسي في مقهى الفيشاوي يوحي لي بالتفكير. . كل نفس شيشة كان يطلع بمنظر، فخيالي أثناء تدخين الشيشة يصبح نشطاً جداً، هذا بالإضافة إلى أن الكثير من كبار الأدباء والمثقفين والسياسيين في مصر وبلاد الشام يتخذون من المقهى مكاناً لصناعة الأفكار وتوليدها، ولعل مقهى (متاتيا) في العتبة الخضراء في القاهرة الذي كان يجلس فيه جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وسعد زغلول، مثالاً على ذلك». (المصدر السابق: 196).

غير أن المساحة المفتوحة التي يتمتع بها المقهى جعلت منه مكاناً تقام فيه حلقات النقاش الأدبي التي يقدّم فيها الفنّانون والرواة فنونهم وإبداعاتهم.

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الثقافة والفنّ الأرستقراطيان في الكثير من البلدان العربية، حيث مُثّل هذا الفنّ والأدب، بالطبقات البرجوازية والطبقات الحاكمة وكبار موظفي الدولة والشركات والبنوك الذين اتخذوا من الأوبرا وأماكن العرض مرتفعة الأسعار مكاناً لهم، «جاء المقهى ليشكّل ثقافة اجتماعية بديلة ومعارض للثقافة الارستقراطية» (المصدر السابق 196)، شكّ لها الفنّانون والأدباء الكادحون الذين سخّروا معظم إبداعهم الجمالي للتعبير عن حال الشعب وواقعه، والنضال من أجل التحرّر والسياسي، حيث كان الوطن العربي يتخبّط في هزائم اجتماعية وسياسية.

وبالإضافة لكون المقهى ملجأً ومتنفساً حورياً وتأملياً للفنّانين والكتّاب، يتناقشون فيه، ويعبّرون عن آرائهم، ويتبادلون أعمالهم الإبداعية والفنّية، ويكتبون فيه، ويرفّهون عن أنفسهم، ويشربون المشروبات الساخنة والمرطبات ويدخنون النرجيلة، شكّل المقهى مكاناً يحوي غرابتهم ووحدتهم، فقد استطاع في كثير من

الأحيان أن يمتصّ شعور الغربة لدى هؤلاء؛ هذا الشعور الذي ينتج بشكل تلقائي عن نهج حياتهم، وهذا ما جعل حسين البرغوثي يقول: «كنت أقضي جلّ حياتي بين المقاهي» (حسين البرغوثي: الضوء الأزرق 1994)(3).
واستطاع المثقفون أن يضفوا على المكان/ المقهى روحاً أخرى من خلال فنّهم وإبداعهم، حيث إن وجودهم شبه الدائم فيه ساهم بشكل كبير في تطوّرها، واستمرار عملها، وتوافد الكثير من الناس عليها لسماع حواراتهم، وحضور نقاشاتهم وندواتهم، وبيّنت المسلسلات المتلفزة المصرية أهمية المقهى كمكان للتعلّم، حيث إن الكثير من الطلبة والمهتمين بالأدب والفنّ كانوا يرتادون المقاهي الشعبية بحثاً عن الكتّاب والصحافيين والفنّانين ورجال السياسة والفكر.

هناك ..
حيث الخشب البني

كثيراً ما أدخل زرياب ليلاً، باب المدخل الأوّل من الخشب البني اللون، يبدو أن الباب عبارة عن لوحة فنّية لأحد الفنّانين. الجهة اليمنى عند دخولك مليئة بقصاصات الجرائد. وفي الجهة المقابلة للحائط، قصاصات إعلانات وملصقات إعلانية لأفلام ومسرحيات وندوات. تصعد درجات صغيرة نوعاً ما، ثلاثين درجة لا يتجاوز عرضها أو عرض الواحدة منها 60سم. كلّ درجة مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء؛ الطرفين من الحجر الأبيض وفي الوسط حجر أسود اللون. عندما تصل إلى آخر الدرجات العلوية تجد باباً على الجهة اليسرى. تقف أمام الباب لتجد نفسك أمام ساحة واسعة نوعاً ما، على يمين الباب تجد مكان المحاسبة ومطبخ المكان، وفي أقصى اليمين حمّام.
وعلى الجهة اليسرى، غرفة يبدو أنها مكتب إدارة المكان. تتقدم نحو الداخل قليلاً، أرضية المكان تبدو أشبه بسطح بناية قديمة؛ الأرضية مفروشة بسجادات أربع موزعة بشكل جميل. الطاولات التسع عشرة الموجودة فيه مصنوعة من الخشب، ومدهونة بلون بنّي غامق، وهي تأخذ الأشكال المستديرة والمربّعة. سقف المكان يمتلئ بأوراق الجرائد، وتنزل من السقف أضواء موضوعة في فوانيس ملونة مصنوعة من الورق المقوّى، عدد الفوانيس ثلاثة عشر بحجمين مختلفين، بالإضافة لبعض الأضواء الخافتة المتناثرة هنا وهناك.
على امتداد الساحة توجد أربعة أعمدة إسمنتية مدهونة باللون الأبيض، وهي مغطاة بالخيش في أطرافها العلوية، ومكبرات صوت الموسيقى موجودة على هذه الأعمدة.
جدران المكان مدهونة باللون الأبيض، وتتوسط الجدران على امتداد محيطها لوحات فنّية تشكيلية لفنانين مختلفين هي عبارة عن معرض دائم متغيّر. في الزاوية اليسرى عند مدخل الباب وبجانب الأعمدة توجد طاولة خاصة جداً، هي للفنّان التشكيلي الفلسطيني تيسير بركات، صاحب المكان، وفي أغلب الأحيان يكون جالساً عليها وحده في حالة حوار وتفاعل مع إحدى لوحاته.
في الجهة اليسرى يتوسط الجدار شباك وباب، ويحوي الباب شرفة مطلّة على الشارع، وبها طاولة يمكن لشخصين الجلوس عليها. في الجهة المقابلة توجد نافذتان، إحداهما مطلّة على شارع جانبي، والأخرى

تطلّ على الشارع الرئيس والشارع الجانبي. هذه الشبابيك والباب تميّز «زرياب» كثيراً، وهي بمثابة أعين له.

الموسيقى لها لون وطعم خاص جداً، فهي غالباً ما تكون منتقاة لفيروز، محمد منير، الشيخ إمام، أحمد قعبور، زياد رحباني، وأيضاً، جورج وسوف، وكاظم الساهر، وبعض الأغاني الهادئة العربية والأجنبية.

افتتح «زرياب» في مدينة رام الله في تموز العام 1997، ويفسر تيسير بركات، صاحب المقهى تسميته قائلاً: زرياب من الشخصيات المشهورة في التاريخ الإسلامي، رغم أنه معروف الآن للكثير من قطاعات الجمهور العربي، فتكريماً لهذا الرجل المهم الذي أضاف الوتر الخامس للعود، والذي كان مبدعاً في مجالات أخرى مثل حضوره الاجتماعي في الأندلس وتصميم الأزياء، ومحبّة له أطلقنا اسمه على هذا المكان.

وعن أسباب تأسيس «زرياب» وأهدافه أجاب بركات: هو حلم راودني منذ أكثر من عشر سنوات، كان وراء الفكرة ثلاثة أو أربعة أهداف سعيت لتحقيقها:

أولاً:

إيجاد ملتقى للمثقفين والفنّانين يلتقون فيه ويتحدثون، وهذا كان غائباً عن بلادنا، حيث لا يوجد مكان يلتقي فيه الفنانون ويتحدثون ويتناقشون، فـ«زرياب» وفّر هذا الجوّ كملتقى لهم.

ثانياً:

محاولة إيجاد قاعة عرض متخصّصة في مجال الفنّ التشكيلي، وذلك لندرة أماكن العرض.

ثالثاً:

كنت أحاول عمل شيء مهم، كنت أحاول أن أجعل روّاد المكان يشاهدون الأعمال الفنيّة فترات طويلة، فالمعارض المتعارف عليها يأتي إليها الناس فترة قصيرة، يشاهدون المعرض ثم يغادر، ولكن هنا من خلال الجلسة الهادئة، والمفترض أن تكون جميلة، تجعل الرواد يشاهدون الأعمال أطول فترة ممكنة خلال الجلوس، ومن خلال الحديث، وهذا كان محاولة للوصول إلى الناس بطرق جديدة غير المتعارف عليها في قاعات العرض.

رابعاً:

محاولة إيجاد طرق لتمويل الفنون التشكيلية دون الرجوع للمؤسسات التمويلية، وطرق عمل «البروبوزل» لدول أجنبية. نحاول أن يكون جزء من ريع المكان لتغطية أجرته ومصاريفه، من كهرباء ومتطلبات أخرى.

ويبدو أن التعارف الاجتماعي والخلفية الفنيّة للمكان، جعلاه مكاناً للمثقفين والكتّاب والفنّانين، فعند سؤال «أنس العيلة»، شاعر يعمل في مؤسسة القطّان للبحث التربوي، عن سبب وجوده شبه الدائم في المكان قال: ً أهم صفة تدفعني لأن أتواجد في «زرياب» أنه المكان الوحيد الذي تستطيع فيه الجلوس وحدك، وهو مكسب من هذه الناحية، وقد تمّ التعارف على «زرياب» على أنه مكان تستطيع فيه رؤية كلّ الناس المهتمة بالأدب والكتابة والفنّ.

غير أن «أنس» نوّه، أيضاً، إلى جوّ «زرياب» المريح، وحريّة التنقّل من طاولة لطاولة حيث يوجد الأصدقاء والكتّاب، وكذلك لرخص أسعار المشروبات الموجودة في المكان، فيما يؤكّد «كفاح الفنّي» أن «زرياب» ملتقى للكتّاب والفنانين، إضافة لكونه يتقبّل الشعور

بالاختلاف:
أنا شخص مألوف «لزرياب»، كما هو مألوف بالنسبة لي، أستطيع فيه أن أمارس طقوس عزلتي واجتماعي، وأعتقد أن المكان يعرف عني إلى الحد الذي يجعله يتألفن مع غرابتي، وأتصل وأحتك مع أناس، من خلاله، في العمق والمدى الثقافي.
ولكن هذا يبدو مختلفاً للرسام «وليد أيوب» الذي يشعر أن «زرياب» هو مكان مهم لبناء علاقات اجتماعية أخرى غير تلك التي تعامل فيها خلال عمله:
أشعر أن هناك دفئاً غريباً في هذا المكان، هذا المكان يمتصّ كل إنسانيتك الخاصة التي يشعرك الشارع من خلال تعامله معك أنك رسام بفقدانها. في هذا المكان روح للتواصل مع الآخرين المختلفين من خلال إنسانيتك، الناس في الشارع ينظرون إليك على أنك رسام، ويتجاهلون الأشياء الأخرى.. هذا المكان غريب جداً، فيه ناس من مختلف الفئات.
غير أن «وليد» يرى في «زرياب» ملتقى ثقافياً للأدباء، على حدّ تعبيره، بشكل عفوي جداً، ودون التخطيط لذلك.
ومما لاحظته، وجود علاقة تبادل خبراتي، أو علاقة تفاعل وتأثير وجدل متبادلة بين الأشخاص الرواد على المكان وبين المكان، غير أن هذا يختلف من شخص لآخر من الرواد، يتابع «وليد أيوب»:
«زرياب» طور، قد لا يكون على المستوى الأدبي والفنّي، فقط، ولكن معرفة الناس نوع من القمية. أشخاص كنت تقرأ عنهم أنت الآن تجلس معهم وتحادثهم وتصادقهم. أنا أشعر أنني بحاجة إلى معرفة الناس. الناس في الشارع يريدون التعرّف على وليد الرسام، ولكن هنا الناس يريدون أن يعرفوا عنك أكثر من ذلك، وهذا ما أنا بحاجة له.. «زرياب» أكسبني معارف جديدة.. هذا المكان هو ملجأ بالنسبة لي.. كثيراً ما أحبّ أن أكون وحيداً مع نفسي فيه.. هذا المكان يمنحك الدفء.
غير أن نوعية وطبيعة أغلبية الناس في «زرياب»، والتفاعل الذي يجري بينهم على الطاولات، يبقي الشخص على حالة تواصل مع اهتمامه، ويستطيع أن يطوّر ذلك من خلال الحوار والتفاعل، ويؤكد «أنس» ذلك، حيث يقول:
«زرياب» ليس منعطفاً في حياتي الفنّية والثقافية، لكن له خصوصية ما، فهو يوفّر فرصةً لسهولة اللقاء والحوار، وفقدانه يعني فقدان شيء مهم..
وربما «زرياب» منعطف كبير في حياة آخرين، ويؤكد «كفاح الفنّي» جدلية العلاقة بينه وبين زرياب:
«زرياب» كمكان غيّر الكثير من الأشياء عندي، ولكن أنا، أيضاً، أستطيع أن أغيّر فيه، من خلال كلامي مع الناس هنا، ومن خلال تداخلي أحياناً في الموسيقى الموضوعة.. «زرياب» مكان أوليّ وضروري بالنسبة لي، لأنه يستطيع أن يتقبل هذا الجدل القائم بيني وبينه.
وأكمل «كفاح» حديثه عن أهمية العلاقة الجدلية بينه وبين «زرياب» بقوله:
جدلية العلاقة بين المبدع والمكان ضرورية، «زرياب» مستجمع لأفكار وأمزجة مختلفة احتواها جميعاً، هنا أستطيع أن أجد «كفاح» العربي كامل الإنسانية، وكامل الحق في بناء موزون ثقافي.
ويرى الفنّانً «تيسيرً بركات» أن لـ«زرياب» دوراً مهماً في تفعيل الثقافة الفلسطينية من خلال إفساحه المجال

لالتقاء المبدعين المختلفين:
من الأشياء التي تعتبر مهمة جداً للثقافة الحوار، و«زرياب» مكان يوفّر فرصة الحوار لهؤلاء، ولعصفهم الفكري، وهذه النقاشات التي تدور هنا تعبّر عن الحالة الثقافية الفلسطينية بمختلف تشعباتها من موسيقى وكتب وتشكيل وأدب.
ويرى «بركات» دور «زرياب» بصورة أكبر من خلال الأنشطة الثقافية والفنّية التي قام ويقوم بها:
مع بداية نشوء «زرياب» بدأنا عمل الكثير من الأنشطة الثقافية من خلال استضافة فرق موسيقية أجنبية، وما زلنا نقوم بتنظيم معارض فنيّة بشكل دوري.
ويبدو تأثير «زرياب» على «أشرف أبو عون»، العامل في المقهى، مشابهاً إلى حدّ كبير لما رواه الآخرون، ولكن من جانب آخر، حيث عاش أشرف ثماني سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية وعمل فيها نادلاً في أحد الفنادق:
أنا عشت ثماني سنوات في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يعني أني لم أمسك في حياتي كتاباً عربياً لأقرأ فيه، ولم أكن أتوقع أني سأعود وأعمل في جوّ عربيّ كهذا، وقد كنت متضايقاً كثيراً من هذا المكان عندما جئت.. الموسيقى مملّة والجو كئيب، وهذا مختلف عن عملي في أمريكا.. أعتقد أن هذا المكان طوّر لغتي العربية لدرجة كبيرة، وصرت أعرف في اللغة العربية والشعر، وفي الشعراء العرب وأسمائهم، وأعرف القراءة في دواوين الشعر والشعراء، ولأن صاحب المحلّ فنّان، فهو دائماً يشرح لنا عن الفنّ التشكيلي، وعن لوحاته، أيضاً.
وللمساحة المفتوحة في «زرياب»، وتوزيع الطاولات بشكل مفتوح على امتداد هذه المساحة، مجالٌ يتيح للروّاد التنقّل بين الطاولة والأخرى، ويجعل إمكانية الحوار بين مجموعات «طاولات» مختلفة إمكانية ممكنة، هذا بالإضافة للديكور البسيط ونوعية الموسيقى المختلفة إلى حدّ ما عن الموسيقى التي توضع في المقاهي الأخرى، جعلت من المكان مختلفاً ومميزاً، يقول «كفاح»:
أنا مختلف، ولأنّي مختلف أستطيع أن أتعامل مع هذه الأشياء وأكون متصالحاً معها.. هناك أشياء متغيّرة ومختلفة في هذا المكان، أو يحويها هذا المكان.. أمزجة مختلفة عن أمزجتي، ومن حقّها أن تعبّر عن طقسها، وبناء علاقتها معه.
ويعلّق «أنس» على هذا الأمر قائلاً:
تفاصيل المكان العمرانية والديكور الذي فيه لافتان جداً للنظر؛ السقف، الجرائد، الموسيقى، الإضاءة، والطبيعة العربية في وضع الطاولات. كشاعر، جميل أن يكون هذا المكان خياري، ويدعم انتمائي للشعر.
وعن التنقل بين الطاولات في المقهى يتابع العيلة:
حرية التنقل لا تعني حرية جديدة للتفكير، لكن هناك مجالاً لتبادل الأفكار، وخوض نقاشات مختلفة، الناس هنا يتفاعلون، التفاعل يخلق أشياء جديدة، ويعطي فرصة لمن يريد أن يتطوّر، المكان لا يشكّل بناء للشخصية، ولكنه يساهم في تطوّرها.
أمّا «وليد أيوب» فيتابع:
المكان مميّز بكل معنى الكلمة، بإضاءته، موسيقاه، وخشبه. تشعر أنّ المكان لأي شخص، أي إنسان يمكن أن يأتي ويجلس فيه. طاولات خشب قديمة، كراسي قديمة.. جرائد في سقف، توزيع الإضاءة بشكل هندسي جميل.
وعندما سألت «تيسير بركات» عن المساحة المفتوحة

للمكان قال:

«زرياب» جاليري، وجزء من الجاليري يجب أن يكون مساحة حتى يستطيع الإنسان أن يرى كل الأعمال الفنّية المعروضة، وفي الوقت نفسه هذه المساحة المفتوحة تشعرنا جميعاً أننا في بيت واحد. كانت هناك حالة من النقاش عند تصميم المكان مع العديد من الفنّانين، والكتّاب.. المكان عبارة عن شخصية، وهذه الشخصية يجب أن تصمّم بفهم، وتكون متقاربة من الفكرة، من وجود المكان، وعندما تكون هذه الفكرة واضحة تستطيع من خلالها أن توظف العناصر الأخرى من الديكور، ومن الإضاءة، ومن جوّ حيث تساعد على إعطاء هذا المكان شخصية معينة بملامح خاصة، ربّما تعجب قطاع من الناس، وربما لا تعجب البعض الآخر، ولهذا، غالباً ما تجد الناس هنا متفتحين متفهمين لطبيعة المكان.

غير أنّ «أشرف» أكّد أنه وزملاؤه العاملين في المقهى ساعدوا على تنفيذ الديكور في المكان:

تصميم المكان للفنّان «تيسير بركات»، ولكن نحن ساعدنا في ذلك، أيضاً.

ولعلّ المتواجد بكثرة في «زرياب» يستطيع أن يلحظ نوعاً من الحميمية والصداقة بين أغلب الروّاد العاملين فيه، حيث إن هذه الحميمية تنتج من خلال التوافد الدائم عليه، ومن خلال طبيعة الناس الموجودين في المكان.

وعلّق «تيسير بركات» على ذلك:

بشكل أو بآخر نستطيع أن نقول: إنّ هذا المكان هو مكان التقاء الغرباء. الفنّانون والكثير من النّاس، يشعرون أحياناً بغربة في مجتمعهم.. يشعرون أنّهم مختلفون، وغير متفاهمين مع مجتمعهم ومحيطهم وما هو مألوف فيه.. «زرياب» حضن لمجموعة من الناس المتقاربة فكرياً وإبداعياً نظراً لتقارب طبيعة عملها في المجالات الفنّية المختلفة من موسيقى وأدب، ورسم.. هذه المجموعة من الناس تجد أنّه بالإمكان أن تلتقي هنا لتتحاور في النتاج الثقافي لكلّ منهم.

ويضيف «بركات» معلقاً على حميمية العلاقة بين العاملين والروّاد:

الشباب العاملون في هذا المكان متفاهمون لأهداف «زرياب» والهدف من وجوده، وهم يحبون «زرياب» كثيراً، ولذلك هم يعاملون الروّاد بطريقة مميزة، غير أن الروّاد هم من فئة الناس الحساسة، تعاملهم مع المكان يكون بحب.

ويرى أشرف أبو عون أن مكوث الروّاد الطويل في المقهى وترددهم الدائم عليه يخلق احتكاكاً بين العاملين والروّاد وهذا يساهم في تطوّر العلاقة بينهم، ما يجعلها علاقة وديّة قريبة، ويضيف عن تطوّر هذه العلاقة:

نصبح والروّاد أصدقاء، ونحن نقبل أي اقتراح منهم بالنسبة للموسيقى، أو الإضاءة أو أي شيء آخر، ونتساءل كثيراً عنهم عندما نحسّ في غيابهم عن المكان.

ويركّز كفاح على أهمية التواضع في التعامل مع العاملين في المقهى، ومدى تأثير ذلك على خلق حالة من الصداقة المتبادلة معهم، وما يوفّره ذلك من أريحية في التعامل مع المكان:

في العادة، تحدث أشياء طريفة في المكان عندما يأتي موظف جديد، هذا الموظف يريد أن يسقط كل اهتماماته على الزبون حتى يكون متميزاً في عمله، فيحاول أن يتعامل معه الناس برسمية، وبهذه المسافات المعروفة دائماً. أنا في البداية أعطيه فرصة حتى يستوعب أنه إنسان مثلي. لكن عندما تصل الأمور إلى «المتكة»، لن

أصبر، فأنا لا أحبّ أن يأخذ «المتكة» من أمامي وينظفها. فعندما يحدث ذلك أمشي خلفه حتى يصل «للكاونتر». عندما يضعها هناك أكون قد لحقته وتناولتها، وحملتها معي مرّة أخرى للطاولة، وهنا تبدأ الغرابة عنده، دائماً أناديهم بأسمائهم الأصلية، وليس بأي لقب آخر، هم موضع تقدير عندي، وربما هذا يعود لتجربة عندي، حيث عملت بعدما تخرجت من جامعة بيرزيت أنظف «متكات» كافتيريا الجامعة، بالعربي زبّال. وأكثر شيء أحسست فيه هو أن تكون عندي قدرة عالية على التواضع.

ويعلّق «وليد» على الموضوع:

هنا نتعامل مع الناس دون ألقاب.. تستطيع هنا أن تتعامل مع الآخرين بألفة ومحبّة.

وعن العلاقة بين العاملين في «زرياب» والروّاد قال «وليد»:

هم أناس بسيطون، يعطونك حريّة التعامل معهم، أنت غير مقيّد في طاولتك، هم يفسحون لك المجال لأن تنتقل بين كل الطاولات.. يأتون ويجلسون معك، يتحدثون عن آلامهم وأفراحهم.. يتكلمون معك عن علاقتهم مع أهلهم وأصدقائهم.. كم لطيف أن تكلمهم ويكلموك.

وهناك نوع آخر من الودّ والغرابة في العلاقة، وهذه تظهر من خلال تعامل صاحب المكان مع العاملين فيه:

أحد الأشياء المهمة التي يناضل من أجلها الفنّان هي العدالة الاجتماعية في فنّه، وأنا أعتقد أنني في حياتي الشخصية أحاول أن أكون عادلاً اجتماعياً.. نحن هنا أخوة وجنود لتحقيق أهداف المكان، ولسنا عاملاً وصاحب عمل.. يهمنا كثيراً أن ننجح فكرة المكان، يقول «تيسير بركات».

ويؤكد «أشرف» غرابة هذه العلاقة التي، ربما، لا توجد في مقاه أخرى قائلاً:

أنا و«تيسير» أصدقاء.. كثيراً ما نجلس ونتحدث عن الكثير من الأمور الخاصة.. نحن نحاول أن نساعد بعضنا البعض.. تيسير كثيراً ما يحدثنا عن الفنّ التشكيلي وعن لوحاته..

---

* طالب في جامعة بيرزيت.

مراجع:

(1) باشلر، غاستون. جماليات المكان، 1966، ترجمة غالب هلسا.

(2) النابلسي، شاكر. جماليات المكان في الرواية العربيّة. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1994.

(3) البرغوثي، حسين. الضوء الأزرق، القدس، بيت المقدس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001.

مقابلات:

- مقابلة مع أشرف أبو عون، زرياب، عامل في المقهى، 2001.
- مقابلة مع أنس العيلة، شاعر يعمل في مؤسسة القطان للبحث التربوي، نيسان 2001.
- مقابلة مع تيسير بركات، فنّان تشكيلي، صاحب زرياب، 2001.
- مقابلة مع كفاح الفنّي، شاعر يعمل في مركز صحة المجتمع، جامعة بيرزيت، نيسان، 2001.
- مقابلة مع وليد أيوب، رسام بورتريه، أيار، 2001.